انهيار الموروث الديني للسمو البابوي في العصور المظلمة (٩٠٣- ٩٦٤م)

دكتور

إيمان عبد التواب خلاوى حسنين

مدرس تاريخ وحضارة العصور الوسطى

قسم التاريخ- كلية الآداب – جامعة دمنهور

(العدد الرابع والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. أكتوبر)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)

انهيار الموروث الدينى للسمو البابوى فى العصور المظلمة (٩٠٣-٩٦٤م)

إيمان عبد التواب خلاوى حسنين
مدرس تاريخ وحضارة العصور الوسطى- قسم التاريخ- كلية الآداب – جامعة دمنهور– مصر
البريد الإلكتروني : eman.khalawi@art.dmu.edu.eg

ملخص البحث :

سعت البابوية فى روما إلى نيل مكانة روحية تسود بها العالم المسيحى فى العصور الوسطى، فروجت لنفسها نظريات السمو والسيادة على العالم المسيحى بعامة والكاثوليكى بخاصة، فأعلنت أن مكانتها تفوق الحاكم لأن البابا هو خليفة السيد المسيح على الأرض؛ وله سلطة إدخال المسيحيين إلى الجنة أو النار ، فأصبح هذا موروثاً دينياً تناقلته شعوب غرب أوروبا بخاصة والعالم المسيحى الكاثوليكى بعامة. وكانت تربة العصور الوسطى التى عرفت بـ "عصور الإيمان" صالحة لوضع بذور الفكرة واستثمارها برعاية البابوية كمؤسسة دينية على رأسها البابا ظل المسيح على الأرض ومن له حق الطاعة العمياء على الحاكم والمحكوم .

بيد أن البابوية فى العصور الوسطى قدر لها الدخول فى فترة ضبابية مبهمة عرفت تاريخياً باسم "Saeculum obscurum " أو العصر المظلم للبابوية وهى فترة انتزعت فيها هيبة البابا ومكانته بسبب الانتهاكات التى اقترفها البابوات بأنفسهم أو أُنتهكت فى حقهم ؛ فاختلطت المقاييس واختلت الموازيين، بل واستبيحت دماء البابوات فتجرأ مسيحيون كاثوليك على قتلهم وإهانتهم وهى جريمة فادحة وخطب جلل ؛ فكيف يقتل رأس الكنيسة فى العالم وزعيمها ؟! وعلى الرغم من أن الماضى كان شاهداً على استشهاد آباء الكنيسة الكاثوليكية مضطهدين على يد أباطرة أو حكام وثنيين ولهذا تم تكريمهم ورفعهم لمرتبة الرسل والقديسيين، إلا أن الحال إنقلب وجاء الوقت

الذى أصبح فيه البابوات يقتلون ويمثل بجثثهم على يد مسيحيين كاثوليك ، وهو ما دفع فضول الباحثة إلى تتبع حالات الاغتيال أو القتل غيلة لبابوات روما فى تلك الفترة الزمنية الحالكة من تاريخ البابوية ، بهدف تتبع الآثار التى تركتها تلك الجرائم على فكرة السمو البابوى كموروث دينى تناقلته الأجيال فى العصور الوسطى، وكيف تعامل العالم المسيحى الكاثوليكى مع تلك الجرائم التى لا شك وأن صداها قد تردد فى أرجاء العالم المسيحى آنذاك .

الكلمات المفتاحية: اغتيال البابوات – العصور المظلمة – حكم العاهرات – السمو البابوى.

The collapse of the religious heritage of the papal supremacy in the Dark Ages (903 – 964)

Iman Abd el Tawab Khalawy Hassanin
Assist. Prof. of Medieval History - Department of History - Faculty of Arts - Damanhour University- Egypt.
Email: eman.khalawi@art.dmu.edu.eg

Abstract : The papacy in Rome wanted to obtain a spiritual position that prevailed in the Christian world in the Middle Ages, so it promoted theories of Therefore, it promoted for itself theories of supremacy over the Christian world in general and Catholicism in particular.However, the papacy in the Middle Ages entered into a dark & misty period known historically as "Saeculum obscurum" or the dark age of the papacy, Therefore the prestige of the pope was taken away because of the abuses committed by the popes themselves or violated against them; The scales were mixed and even the blood of the Popes became cheap, so the Catholic Christians dared to kill and insult them, in a dangerous precedent.

How was the head of the church in the world and its leader was killed!? Although the martyrdom of the fathers of the Catholic Church was persecuted by pagan emperors or rulers, and for this, they were honored and elevated to the rank of apostles and saints, but the situation turned and the popes became assassinated and their bodies desecrated by Catholic Christians, Which necessitated tracing the assassination or murder cases of the Popes of Rome in that dark period of the papacy's history, and tracing the effects of those crimes on the idea of papal supremacy as a religious heritage inherited by generations in the Middle Ages, and how the Catholic Christian world dealt with those crimes whose news spread around the world Christianity at the time.

Keywords : The assassination of Popes - Dark Ages - Rule of The Harlot - papal supremacy.

المقدمة

سعت البابوية إلى تناقل الموروث الدينى لنظريات السمو البابوى والسيادة الروحية للبابا على كل الأرواح، فأعلنت أن مكانتها تفوق الحاكم لأن البابا هو خليفة السيد المسيح على الأرض؛ وله سلطة إدخال المسيحيين إلى الجنة أو النار، وكانت تربة العصور الوسطى التى عرفت بـ"عصور الإيمان" آنذاك صالحة لوضع بذور الفكرة واستثمارها برعاية البابوية كمؤسسة دينية على رأسها البابا ظل المسيح على الأرض ومن له حق الطاعة العمياء على الحاكم والمحكوم .

بيد أن البابوية فى العصور الوسطى قدر لها الدخول فى فترة ضبابية مبهمة عرفت تاريخياً باسم "Saeculum obscurum" [1] أو العصر المظلم للبابوية وهى فترة انتزعت فيها هيبة البابا ومكانته بسبب الانتهاكات التى

(١) هو مصطلح لاتينى أطلق على حقبة زمنية مظلمة من تاريخ البابوية استمرت لما يقرب من ستين عاماً (٩٠٤- ٩٦٤م) وهى الفترة التى عاصرت نهايات الأسرة الكارولنجية ؛ وهجمات المسلمين لشبه الجزيرة الإيطالية وكذلك تهديدات النورمان، وقد حدد غالبية المؤرخين أن عصور البابوية المظلمة بالفترة من (٩٠٤- ٩٦٤م) أى منذ تولى البابا سرجيوس الثالث Sergius III (٩٠٤- ٩١١م) وحتى نهاية البابا يوحنا الثانى عشر John XII (٩٥٥- ٩٦٤م) ، وهناك بعض المؤرخين الذين قالوا إنها امتدت حتى قدوم البابا جريجورى السابع بعد قيامه بالاصلاحات الكنسية الجريجورية الشهيرة . وهناك من ربط نهايتها بإعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة على يد الإمبراطور أوتو الأول Otto I (٩٦٢- ٩٧٣م) . وللأسف فإن فترة العصور المظلمة للبابوية اقترنت بذكر سلسلة من الجرائم البابوية بما فيها القتل والفساد والانحلال الخلقى ، فى ظل عدم وجود إمبراطور قوى أو حاكم لديه القدرة على التصدى لتلك الانحرافات . انظر :

William Cave: Scriptorum Ecclesiasticorum historia literaria a Christo nato usque ad sæculum XIV, Musevm Britan, Coloniae Allobrogum Gabrielem de Abrielem de Tournes & Filios , M.D CC. XX. (1720) , p.491; John C. Dwyer: Church history, Paulist Press, New York, 1998, p. 155; Issac pandinjarekutt: Christianity Through The Centuries, St. Paul Press Training School, 2005 , p. 58.

اقترفها البابوات بأنفسهم أو أُنتهكت فى حقهم فاختلطت المقاييس واختلت الموازيين لتنهار هيبة البابوية وعصمة البابوات وتستباح دمائهم وتجرأ مسيحيون كاثوليك على قتلهم وإهانتهم وهى جريمة فادحة وخطب جلل ، ولهذا تم تقسيم البحث على ثلاثة محاور متوازية ومجتمعة شكلت فى مجملها الأسباب الرئيسية لإنهيار فكرى أو نظرية السمو البابوى فى الفترة الزمنية للبحث وهى على الترتيب: ١- الاغتيالات البابوية ٢- الانحرافات اللأخلاقية للبابوات فى العصور المظلمة ٣- الدعاية السلبية لتشويه سمعة البابوية فى صراعها مع الدولة. وقد كانت تلك المحاور مجتمعة هى الأدوات التى استخدمتها السلطة الحاكمة أو الدولة فى إدارة الصراع بين الدولة والكنيسة بما يخدم فكرة إجهاض السمو البابوى.

المحور الأول

الاغتيالات البابوية

قبل البدء فى تتبع حالات الاغتيال البابوى ينبغى التفريق بين الدوافع التى أدت لارتكاب تلك الجرائم وتبيان تصنيفها ما بين اغتيالات لدوافع إجرامية أوسياسية أو أخلاقية ن ولذا ينبغى علينا ضبط المصطلح ، والمقصود بمصطلح اغتيال assassination [٢]، ويقصد بالاغتيال البابوى أى بابا اعتلى الكرسى البابوى وانتهت حياته قتلاً لأسباب سياسية حتى وإن كانت مغلفة بدوافع أخلاقية، أو مادية، ولا يهمنا فى موضوع البحث من استشهد زمن الاضهاد للمسيحى فى العصور المبكرة سواء كانوا من الرسل أو القديسين على يد أباطرة وحكام وثنيين، بل يعنينا البابوات الذين تم اغتيالهم على يد مسيحيين كاثوليك، فعلى الرغم من أن الماضى كان شاهداً على استشهاد آباء الكنيسة الكاثوليكية مضطهدين على يد أباطرة أو حكام وثنيين إلا أنهم كُرموا ورُفعت مكانتهم لمرتبة الرسل والقديسيين، لكن الحال تبدل وجاء الوقت الذى أصبح فيه البابوات يُقتلون ويُمثل بجثثهم على يد مسيحيين كاثوليك، فكانت الاغتيالات أو القتل غيلةً لبابوات روما فى تلك الفترة الزمنية الحالكة من تاريخ البابوية هو السبب الرئيسى فى انهيار فكرة السمو البابوى كموروث دينى تناقلته الأجيال فى العصور الوسطى، وكيف تعامل العالم المسيحى الكاثوليكى مع تلك الجرائم التى لا شك وأن صداها قد تردد فى أرجاء العالم المسيحى آنذاك .

---

(٢) من غيل وهو القتل على حين غرة (فقهياً)، الغِيلَةُ هو الاسم من اغتيال وهو المصدر ويكثر استخدامه فى القتل لأسباب سياسية أو لخصومة ويقال اغتال الشخص أى أخذه من حيث لا يدرى فأهلكه وفى القاموس الوسيط يقال غاله – غولاً وتعنى أهلكه وأخذه من حيث لا يدرى فأهلكه الغِيلَةُ ويقال: قَتَلَه غِيلةً: على غفلة منه. انظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨م، مادة (غَالَهُ)، (اغْتَالَهُ)، (الغِيلَةُ) ص ٦٦٦- ٦٦٧.

بحيث يمكننا القول بأن الاغتيالات البابوية مرت بمرحلتين يمكن رصد سماتهما العامة من خلال الإجابة على سؤال طرحته وأجابت عليه إحدى الدراسات الحديثة عن سبب وكيفية اختفاء البابا فى العصور المظلمة؟ ستكون إجابة المواطن المسيحى فى القرن العاشر الميلادى آنذاك بعدة أسئلة فى المواجهة على غرار فلنبحث عن صندوق خزانة البابوية هل أختفى مع البابا ؟ أو هل ارتكب البابا جريمة وانحرافاً جنسياً ترتب عليه التنكيل به وإذلاله وكسر عينه لدرجة عدم قدرته على مواجهة العامة ؟ أو هل قام الحاكم بقتله غيلةً وغدراً لأسباب سياسية [٢]، وبناءعلى ذلك فإن الاغتيالات البابوية سواء صُبغت بدوافع مالية أو أخلاقية أو فى إطار صراع الدولة والكنيسة فإن جوهرها السياسى هو العامل المشترك والسبب الرئيسى لمعظم حالات الاغتيال.

لقد بدأت جريمة الاغتيال البابوى قبل فترة البحث بسنوات طويلة حينما أُستهلت قائمة الاغتيالات بالبابا يوحنا الثامن John VIII (٨٧٢-٨٨٢م) أول البابوات المقتولين غدراً على يد مسيحيين كاثوليك فى نهاية عام ٨٨٢م ؛ وكان ذلك بسبب الطمع فى خزانة البابوية Patrimony[٣] وما تدره

---

(٢) Brenda Ralph Lewis: Dark History of the Pope, Amber Books Ltd,London, 2012, pp. chap. 1, parag.2.

(٣) وفقاً لهبة قنسطنطين Donation of Constantine المزعومة فإن الامبراطور قنسطنطين أباح للبابوية أن تمتلك أراضى وممتلكات في وسط إيطاليا، بحيث يكون لها حق التصرف في الدخل والأموال التي تأتي منها، بوصفها أراضى تابعة للقديس بطرس، وبمرور الوقت سارت بعض عائلات النبلاء داخل وخارج إيطاليا على حذو قنسطنطين، وتبرعت بالأراضي أو أن بعض العائلات انقرضت ولم تترك ورثة لأراضيها في إيطاليا بفعل الحروب أو الغزوات الجرمانية، وبالتالى آلت ممتلكاتهم للبابوية، وقد ترتب علي ذلك أن تدفقت الأموال علي خزانة البابوية سواء من الضرائب أو أموال الإيجارات وقد انتشرت تلك الممتلكات في إيطاليا، وصقلية، وأنطاكيا، وآسيا الصغرى، وفي منطقة هيبو في شمال أفريقيا، وأرمينيا، بيد أن تلك الممتلكات مع بداية القرن السابع توقفت علي أن تمنح =

ممتلكات البابوية من ثروات على يد بعض رجال الدين المصاحبين له، ويشير المصدر المعاصر أن البابا كان يتم تسميمه بجرعات محددة لم تقتله على الفور، وأن القاتل كان أحد أقارب البابا ممن يثق فيهم ولكنه رأى أن البابا عاش أكثر من اللازم، فانهال عليه بمطرقة هشمت جمجمته وقتلته علي الفور، وأن القاتل استعجل قتله بتلك الطريقة البشعة لرغبته في الاستيلاء على صناديق الكنوز البابوية التى كان يصطحبها البابا معه فى أسفاره، كما أكد المصدر أن القاتل كان طامعاً فى السيطرة على كرسى الأسقفية –البابوية (٤).

فى الحقيقة كان إغتيال البابا يوحنا الثامن أمراً جللاً وخطيراً لأنه لم يكن له سابقة يحتذى بها لكونه حدث على يد مسيحى كاثوليكى، فالمصدر المعاصر يؤكد أن البابا كان يتم تسميمه تدريجياً، لكن القاتل استعجل موت البابا فهشم رأسه بهراوة أو مطرقة ليسرق حصيلة خزانة البابوية، وهو ما يدعو الباحثة إلى القول بأن هناك أكثر من طرف يرغب فى موت البابا، لأنه لو كان القاتل هو من يضع السم ببطء لقتل البابا، فما هو الداعى لاستعجاله بتهشيم رأس يوحنا الثامن بمطرقة فهو يعلم أن البابا سيموت على أية حال فلم المخاطرة بارتكاب جريمة دموية تعرضه لافتضاح أمره – كما حدث بالفعل– ؟! .

=للبابوية في روما، حيث كان يفضل أن تمنح لكنيسة القسطنطينية، ومع اتساع حركة الفتوح الإسلامية وسقوط صقلية وجنوب إيطاليا في يد المسلمين فقدت البابوية جزءاً كبيراً من دخلها، إلي أن استطاع النورمان أن يستعيدوا تلك الممتلكات من المسلمين، فحكموا جنوب إيطاليا وصقلية بوصفهم تابعين إقطاعيين للبابوية. لمزيد من التفاصيل انظر:

Robinson I. S.: Reform and the Church (1073 -1122), in N. Cam. Med. His, vol. 4, Cambridge University Press, Cambridge, pp. 288 – 289 .

(٤) The Annals of Fulda : The Annals of Fulda " Ninth Century Histories, trans. By Timothy Reuter, vol. 2, Manchester University Press, Manchester,1992, p.106-107.

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نقيم الفترة الزمنية التى عاصرها البابا يوحنا الثامن لندرك أنه وقع أسيراً لرغبته العارمة فى طرد المسلمين من شبه الجزير الإيطالية، مستخدماً كل السبل للضغط على الأمراء وحكام المدن الإيطالية حتى يمنعهم من التعامل الاقتصادى أو التحالف السياسى مع المسلمين مهددا إياهم بقرارت الحرمان أو اللعنة لينتهى به الأمر منبوذاً مكروها من القوى السياسية فى شبه الجزيرة الإيطالية لمحاولته فرض سياسته العدائية ضد المسلمين جبراً لا اختياراً بغض النظر عن توافق رؤية البابوية مع مصالح القوى السياسية الإيطالية آنذاك(٥). وبتتبع آخر خطابات البابا يوحنا الثامن التى أرسلها إلى ريتشارديس Richardis (٨٨١- ٨٨٨م)، ورئيس مستشاري الإمبراطور الأسقف ليتوارد أف فيرسالى Liutward of Vercelli (٨٨١ – ٨٨٧م) فى عام ٨٨٢م – أى قبيل وفاته– كان يردد أن مدينة روما لم تعد آمنة وأنها مملوءة بالحقد والكراهية التى لن يستطيع أحد مواجهتها إلا زوجها الإمبراطور شارل السمين Charles the Fat (٨٨١-٨٨٨م) دون غيره حتى يتخلص من الأشرار سواء المسلمون أو حلفاؤهم من الأمراء المسيحيين الخونة الذين لم يعد يجدى معهم نصح أو إرشاد ، وأنه – أى البابا– يشعر أن الموت يلوح فى الأفق وأصبح يفضل الموت على البقاء على هذا الحال (٦). ومما سبق يتضح أن القاتل الفعلى للبابا ما هو إلا فرد

---

(٥) لمزيد من التفاصيل

إيمان عبد التواب خلاوى: موقف البابا حنا الثامن من تهديدات مسلمي جنوب إيطاليا لروما (٨٧٢ – ٨٨٢م)، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٦ ، ج. ٢، القاهرة ، أكتوبر ٢٠١٨م ، ص ١٦٢- ١٩٣.

(٦)Iohannes VIII papa: Queritur nullam sibi contra Saracenorum excursiones opem ferri; rogut ut ub imperatore celeriter posluletr auxilium: legatum suum commendat ; petit det operam ut Angelberga ab exsilio revoceiur et Romam nuittalur (anno 882), in Opuscula et epistoae quae spectant ad causam Hincmari Laudunensis Joannes VIII Pontifex Romanus, in Patrologiae latina, tomus 126, Excudebatur et venit apud J. P. Migne, 1852, pp. 949 – 950.

في صف طويل ممن يريدون قتله؛ وأنه فى أواخر أيامه كان يتمنى الموت ويشعر بالاستنزاف المادي والمعنوى لدرجة أنه يصطحب معه فى رحلاته صناديق محملة بأموال وكنوز الخزانة البابوية التى لا يأمن علي بقائها فى روما مطمعاً لحاشية من الخائنين واللصوص، وبالتالى يمكن القول إن هناك طرفين تورطا فى اغتيال البابا يوحنا الثامن، الأول هو القاتل الذى نفذ جريمته كان طامعا فى الحصول على كرسى الأسقفية وصناديق الأموال التى بحوذة البابا فقتل البابا وهشم رأسه بوحشية، والطرف الآخر هو من خطط بقتل البابا بالسم وقد يكون هذا الطرف من الأمراء الحانقين والغاضبين على البابا وسياسته الداخلية والخارجية.

والغريب فى الأمر أنه لم يجر تحقيق بابوى بشكل كافٍ لتتبع أبعاد اغتيال البابا يوحنا الثامن حيث اكتفى المصدر بالقول إن القاتل ضُبط متلبساً وأن الحشود تجمعت حوله، لكن القاتل خر صريعاً من الرعب والخوف، على الرغم من أنه لم يلمسه أحد، وأن جسده لم يصب ولو بجرح واحد لأن الجميع وقفوا مصدومين من تلك الجريمة الشنعاء فلم يتعرضوا للقاتل الذى خر صريعاً فى نفس مكان جريمته (٧). ومما سبق نستنتج أن موت القاتل بتلك الطريقة الغامضة أغلق باب التحقيقات حول الفاعل الحقيقى والمحرض على الاغتيال، فلو كان القاتل هو من وضع السم للبابا فهو يدرك أنه ميت لا محالة دون المغامرة بكشف جريمته، وهى طريقة تناسب فكرة الاغتيال السياسى بهدوء وتترك النهاية مفتوحة دون توجيه أصابع الاتهام لأحد، وفى إعتقاد الباحثة أن المجرم الذى هشم رأس البابا كان غشيماً سيئ الحظ أراد السرقة التى تحولت إلى جريمة قتل لرجل يعتبره المسيحيون خليفة السيد المسيح على الأرض، وأن موت القاتل بهذا الشكل يوحى أن شخصيته كمجرم كانت من الضعف والاهتزاز الذى جعل الجريمة تنفذ بتلك الدموية والهمجية وهو أسلوب لا يتماشى مع عقلية قاتل ينفذ جريمته بهدوء وبالسم البطئ.

(٧) The Annals of Fulda :op. cit., p. 106 - 107.

لم تنعم البابوية ولا حكام المدن الإيطالية بالهدوء بعد اغتيال البابا يوحنا الثامن، بل على النقيض تماما وقعت البابوية ضحية الفوضى والإضمحلال، وهو ما يمكن استنتاجه بسهولة من أزمة مجمع الجثة Cadaver Synod يناير ٨٩٧م والذى تم عقده بناء على قرار البابا المنتخب حديثاً Stephen VI (٨٩٦- ٨٩٧م) الذى وصفته المصادر المعاصرة بأنه رجل سيء السمعة أراد تصفية حسابات قديمة مع خصمه اللدود البابا السابق فورموسوس Formosus (٨٩١- ٨٩٦م)، فأخرج جثة البابا وقام بمحاكمتها فى مشهد عبثى، لينتهى المجمع الدينى بتجريد جثة البابا فورموسوس من ثيابها البابوية وقطع الأصابع الثلاثة لليد اليمنى للجثة والتى كان يمنح بها البابا البركة لرعاياه، كما تم إبطال قرارات ورسامات(تعيينات) البابا فورموسوس لرجال الدين فى المناصب الكنسية، وبعد ذلك تم دفن جثته فى مقبرة عادية ليتم حفرها مرة أخرى وربطها بالأثقال وإلقائها فى نهر التيبر الذى تدفقت فيه مياهه بفيضان كاسح لمدة ثلاثة أيام، بينما كان الجو ممطراً وامتلأت السماء بوميض البرق وأصوات الرعد، وعلى الرغم من أن ليتوبراند أف كريمونا أخطأ حينما اختلط عليه الأمر فى هوية البابا الذى عقد مجمع الجثة، وإلتبس عليه الأمر بين البابا ستيفن السادس والبابا سرجيوس الثالث إلا أنه أكد التجاوزات وقرارات مجمع الجثة المفجعة[٨]. ويلاحظ أن ليتوبراند أف كريمونا حينما ذكر مجمع الجثة الكنسى حرص على ذكر القصة رغم عدم إحاطته بتفاصيلها وإلتباس الأمر عليه فى اسم البابا –كما سبق الذكر– وكأنه يُشهد القارئ على فساد البابوية ويمعن فى تشويه صورتها ، وقد ترتب على ما

(٨)The Annals of Fulda :op. cit., p. 135; Auxilius: Auxilii in Defensionem Sacrae Ordinationis Papae Formosi, in Auxilius und Vulgarius Quellen und Forschungen zur Geschichte des Papstthums im Anfange des zehnten Jahrhunderts, von Ernst Dümmler, Leipzig, 1866, pp.71-72; Liutprand of Cremona: Works of Liutprand of Cremona "Antapodosis", trans. & introduction by F. A. Wright, E. P. Dutton &CO., New York, 1930,pp. 52- 53.

سبق إهدار ما تبقى من الهيبة البابوية على يد بابوات كان بأسهم بينهم شديد ففجروا فى الخصومة وأضاعوا الموروث القديم للسمو البابوى.

بيد أن بعض العقلاء من رجال الدين فزعوا من تدنيس الهيبة البابوية والعبث بجسد رجل يفترض أنه على رأس العالم الكاثوليكى، كما أن العامة من المسيحيين فى روما لم يرضهم ماحدث واستشعروا خوفاً وانتظاراً لعقاب السماء لما حل بجثة البابا من انتهاكات، بل ترددت روايات بأن هناك صياداً عثر على جثة البابا الملقاه فى النهر وتم حملها إلى كنيسة القديس بطرس أمير كل الرسل، ليس هذا فحسب بل أن هناك صوراً لقديسين ظهرت على تابوت البابا فورموسوس وكأنها جاءت لتحيته بكل تبجيل، وفى خريف ٨٩٧م قامت الدهماء بمهاجمة البابا ستيفن السادس وتم القبض عليه وألقى فى السجن حيث تم اغتياله وخنقه فى محبسه فيما بعد على يد أنصار البابا السابق فورموسوس [٩]. ولا شك أن تلك الأحداث المتلاحقة فى يوم كئيب ممطر مليئ بالظواهر الجوية وأجواء البرق والرعد والفيضان قد شكل هاجساً لدى عامة المسيحيين ومن معهم من أتباع البابا فورموسوس فاستشعروا وكأنها رسالة تنم عن غضب السماء، مما دفعهم للزحف وقتل أوفلنقل اغتيال البابا ستيفن السادس.

تتابع على الكرسى البابوى فى الفترة من ٨٩٧م وحتى ٩٠٤م ما يقرب من ستة بابوات لم يتمتعوا بفترات حكم طويلة لدرجة أن أحدهم لم يجلس على الكرسى البابوى سوى عشرين يوماً وهو البابا ثيودور الثانى Theodore II (أغسطس ٨٩٧م) لم يفعل فيهم شيئاً سوى إبطال قرارات البابا ستيفن السادس

(٩) Epistolae et privilegia Stephanus Papa, in Anastasius Bibliothecarius , Patrologiae latina , Jacques-Paul Migne , Tomus CXXIX (129), pp. 855- 856; Liutprand of Cremona: Works of Liutprand of Cremona "Antapodosis",pp. 53- 54; Ferdinand Gregorovius: History of the City of Rome in the Middle Ages, vol. 3, trans. from German edition by Annie Hamilton, G. Bell & sons, London, 1895, p. 229.

وإعادة جثة البابا فورموسوس لتدفن مرة أخرى بجوار البابوات السابقين، وقد وصف بارثيليميو أف بلاتينا بابوات تلك الفترة بأنهم لم يتعلموا شيئاً أو يدرسوا شيئاً سوى إطفاء وتدنيس شرف أسلافهم من البابوات وإبطال أعمال ومراسيم بعضهم البعض، وكانوا جميعاً كالكلاب الجبناء الذين لا يستطيعون مهاجمة أعدائهم إلا بعد تقييدهم ولم يستثن بلاتينا أحداً من هؤلاء البابوات سوى البابا رومانوس Romanus (اغسطس ٨٩٧- نوفمبر ٨٩٧م) الذى اعتلى الكرسى البابوى لثلاثة أشهر فقط عن طريق انتخابات سليمة ووصفه بأنه كان عاقلاً حكيماً كان ينتظر على يديه الخير لولا أن الموت لم يمهله طويلا (١٠). وكأن الكثرة العددية هنا تثبت أن كثرة البابوات لم تك ذات جدوى ولم تصلح حال البابوية ، بل كانت قلتهم أو عدم وجودهم افضل وأحفظ لهيبة البابوية

كان ظهور سرجيوس - البابا سرجيوس الثالث الثالث Sergius III (٩٠٤- ٩١١م)- على مسرح الأحداث نذير شؤم لدخول البابوية فى عصورها المظلمة التى بدأت فى عهده -كما سبق الذكر- فبعد وفاة البابا ثيودور الثانى ٨٩٨م حاول سرجيوس بمساعدة مجموعة من النبلاءعلى انتخاب نفسه لمنصب البابوية ضد إرادة لامبرت Lambert of Italy (٨٩١- ٨٩٨م) الذى رفض ترشيحه وأيد منافساً آخر هو البابا يوحنا التاسع John IX (٨٩٨- ٩٠٠م) الذى نجح بالفعل فى اعتلاء الكرسى البابوى، وكان أول قراراته إصدار قرار الحرمان ضد سرجيوس الذى لاذ بالفرار لاجئاً إلى أدالبرت الثانى اف توسكانى Adalbert II Margrave of Tuscany (٨٧٥- ٩١٥م) وظل مراقباً للأحداث بحذر حتى سنحت له الفرصة بالتدخل حينما اعتلى الكرسى البابوى ليو الخامس Leo V (٩٠٣- ٩٠٤م) الذى لم يطل به المقام طويلاً بعد أن تم إلقاء القبض عليه على يد البابا المغتصب

(١٠)Auxilius und Vulgarius:op.cit., p. 72; Platina, Bartolomeo: The Lives of The Popes "from The Tim of our Saviour Jesus Christ to The Accession of Gregory VII", trans. & edited by Benham B. D,Griffith Farran & CO., London, p. 239.

كريستوفر Antipope Christopher (٩٠٣- ٩٠٤م) بنهاية عام ٩٠٣م، وقد وصف بلاتينا موقف البابا ليو الخامس من البابا المغتصب بأنه "كمن ربى ذئباً فالتهمه"، وقد تحرك سرجيوس بدعم من ثيوفلاكت حاكم توسكالم Theophylact I of Tusculum (٨٦٤- ٩٢٤م) للإطاحة بالبابا المغتصب كريستوفر؛ وكان وصوله لروما إيذاناً بإنقلاب جديد بعد تخلصه من ليو الخامس فى محبسه وكذلك إلقاء القبض على كريستوفر المغتصب وعلى الرغم من أن بلاتينا أوضح أن كريستوفر أجبر على التزام أحد الأديرة إلا أنه حينما انتقل للحديث عن سرجيوس الثالث قال : "بعد أن تولى سرجيوس البابوية أخرج كريستوفر من الدير وأودعه السجن ثم حسم أمره قبل أن يذهب فى رحلة إلى فرنسا عاد منها بمحاباة وصداقة الفرنسيين" (١١). وكلمة حسم أمره فى هذا المصدر لا يوجد لها معنى آخر سوى إنهاء سرجيوس لحالة القلق والتربص وتخلصه من خصومه بالقتل، ويبدو أن السجن والاقامة الجبرية فى الدير لم يكونا كافيين لوقف تهديدات كل من ليو الخامس وكريستوفر وبالتالى كان الاغتيال هو الحل الوحيد أمام سرجيوس الثالث.

وعلى الرغم من اتهام البابا سرجيوس الثالث بقتل كل من البابا ليو الخامس والبابا المغتصب خنقاً حيث حدد أوكزليوس فولجاريوس فى حوليته أن البابوات الثلاثة ليو وكريستوفر وسرجيوس تصارعوا فيما بينهم وقضوا على بعضهم، إلا أن أحد المصادر أوضحت أن كريستوفر قرر أن يصبح راهباً فى أواخر أيامه ومات فى أحد الأديرة (١٢) ، لكن الباحثة لا تميل إلى أن موت

(١١)Auxilius und Vulgarius: op.cit., p. 135; Ferdinand Gregorovius: History of the City of Rome in the Middle Ages, vol. 3, pp. 231, 242 - 244.

(١٢)Hermannus Contractus: Hermanni Contracti Chronicon "Codex Augiensis" ad anno 904, in Patrologiae latina, Jacques-Paul Migne, Tomus CXXXXIII (143), p. 208; Auxilius und Vulgarius:op.cit., p.135; Ferdinand Gregorovius: History of the City of Rome in the Middle Ages, vol. 3, p. 244.

كريستوفر منافس البابا كان طبيعياً ، والمتامل لسير الأحداث سيدرك أن الوفاة المفاجئة لكل منافسى سرجيوس فى وقت واحد لهو مؤشر خطير على أن ارتماء سرجيوس فى أحضان عائلة ثيوفلاكت جعله متقبل لفكرة أن خليفة السيد المسيح عليه أن يغمس يديه فى الدماء أحياناً ليظل جالساً على الكرسى البابوى.

مجمل القول أن البابا يوحنا الثامن حينما طارد مشروعه بالقضاء على المسلمين وأخذ يعادى أمراء وحكام المدن الإيطالية ويستدرجهم بأموال البابوية وثرواتها، لفت نظر الأمراء والحكام الإيطاليين إلى ثروات البابوية وممتلكاتها فكان من المنطقى أن يتنافس الحكام عليها ليقوى كل منهم جبهته فى مواجهة أحدهم الآخر وهو ما أوقع البابوية بين شقى الرحى، وفى الوقت الذى يتصارع ورثة البيت الكارولنجى على تتويج البابوية لضمان اللقب الإمبراطورى المقدس أصبحت البابوية فى مرمى ملوك أوروبا المتصارعين على اللقب الإمبراطورى بعد أن أصبح لهم مخلب يتلاعبون به فى شئون البابوية ، كما أن حصانة البابا المادية والمعنوية باتت محل شك منذ اغتيال البابا يوحنا وما أعقبه من أحداث مهينة فى مجمع الجثة وتبعاته التى قضت على ما تبقى من الهيبة البابوية وعصمة دماء البابوات؛ فشجعت الطبقة الأرستقراطية الإيطالية على أن تتدخل فى إختيار البابوات وعزلهم عن البابوية حتى وإن خاضت فى دماء البابوات دون خوف أو تردد.

المحور الثاني

الانحرافات اللأخلاقية للبابوات فى العصور المظلمة

ارتبطت تلك الفترة التاريخية فى أذهان مؤرخى العصور الوسطى بما يعرف تاريخياً بمصطلح حكم العاهرات "Rule of The Harlots" أو "The Papal Pornocracy" ورغم صعوبة الكلمة على مسامع مؤرخى العصور الوسطى إلا أن هناك دراسات حديثة أسندت هذا المصطلح إلى المؤرخ المعاصر ليتوبراند أف كريمونا وقد اتفق معظم المؤرخين على أن حكم العاهرات بدأ مع تولى سرجيوس الثالث الكرسى البابوى(١٣)، والمتأمل فى تاريخ البابوية فى عصورها المظلمة يدرك أن هذا المصطلح رغم قسوته ماهو إلا نتاج طبيعى للفساد البابوى أو فلنقل أنه نتيجة للتزاوج والإتحاد غير الشرعى بين الجنس والسياسة آنذاك .

بيد أن سرجيوس الثالث حينما بدأ فترة بابويته بالدم حينما اغتال كلاً من ليو الخامس وكريستوفر لم يك ذلك آخر جرائمه ، بل أعقب ذلك بسلسلة أخرى من الجرائم الأخلاقية بعد أن وقع أسيراً لولى نعمته ثيوفلاكت حاكم توسكانى وزوجته ثيودورا Theodora (٨٧٠– ٩١٦م) التى وصفتها المصادر المعاصرة بالعاهرة التى سلطت ابنتها ماروزيا Marozia (٨٩٠– ٩٣٧م) أن تغوى البابا سرجيوس الثالث فأوقعته فى الخطيئة حتى أنجبت منه سفاحاً طفلاً أصبح يعرف فيما بعد باسم البابا يوحنا الحادى عشر John XI (٩٣١– ٩٣٥م) (١٤). ويبدو أن الفترة التى قضاها سرجيوس الثالث فى بيت

(١٣)Jo Ann Mcnamara and Suzanne Wemple: The Power of Women through the Family in Medieval Europe 500-1100 , vol. 1 , Feminist Studies , Women's History, (Winter – Spring), Feminist Inc. , 1973, p. 136; Conrad Leyser: Episcopal Office in the Italy of Liudprand of Cremona "c.890-c.970", in The English Historical Review, Vol. 125, No. 515 (August), Oxford University Press, 2010, p. 795.

(١٤)Liutprand of Cremona: Works of Liutprand of Cremona "Antapodosis", pp. 92–93.

ثيوفلاكت قبيل اعتلاؤه الكرسى البابوى بالاضافة لوقوعه تحت تأثير ماروزيا كانت هى العامل الرئيسى والمحدد لسياسة البابوية فى عهد سرجيوس فأدركت ثيودورا وابنتها ماروزيا أهمية منح الكرسى البابوى لرجال من الخاطئين الخاضعين لشهواتهم وعاهراتهم وبعد موت سرجيوس الثالث حل محله البابا يوحنا العاشر John X [١٥] (٩١٤-٩٢٨م).

لقد شهد ليتوبراند أف كريمونا كونه من المصادر المعاصرة والمعارضة للبابوية حينما وجه اتهاماً مباشراً للبابا يوحنا العاشر بأنه كان على علاقة آثمة مع ثيودورا التى وصفها بالعاهرة الوقحة التى فُتنت بجمال يوحنا حينما كان أسقفا لرافنا ودعته لارتكاب جريمة الزنا فأوقعته فى الخطيئة مراراً وتكراراً، بل واستغلت وفاة أسقف بولونا، ودفعت بعشيقها يوحنا لاعتلاء الأسقفية ومن بعدها أسقفية رافنا، ولكن ثيودورا التى تعلقت بعشيقها لم تستطع صبرا على فراقه لبعد المسافة بين رافنا وروما فدعته للقدوم إلى روما وساعدته على اعتلاء الكرسى البابوى [١٦] .

---

(١٥) ولد البابا يوحنا العاشر فى مدينة توسينيانو Tossignanno بإقليم رومانا Romagna شمال إيطاليا وقد اختلفت الروايات حول هوية والد البابا يوحنا العاشر من علاقة آثمة لدرجة أن بلاتينا فى مصدره المتأخر زمنياً عن حياة البابوات يؤكد أن والده هو البابا سرجيوس الثالث ، كما كرر ادعاءه بأن البابا يوحنا الحادى عشر هو أيضاً ابن البابا سرجيوس الثالث وماروزيا مما يرجح أنه اختلط عليه الأمر بين يوحنا العاشر والحادى عشر ربما لتشابه الأسماء ولقصر الفترة الزمنية الفاصلة بينهما . وكان يوحنا العاشر قد عين رئيس أساقفة رافنا Ravenna عام ٩٠٥م وتم تنصيبه على يد البابا سرجيوس الثالث بنفسه . انظر :

Platina, Bartolomeo: The Lives of The Popes "from The Tim of our Saviour Jesus Christ to The Accession of Gregory VII", pp. 245- 246, 248.

(١٦)Liutprand of Cremona: Works of Liutprand of Cremona "Antapodosis", pp. 92–93.

بتحليل كتابات ليتوبراند أف كريمونا يدرك القارئ أن فترة حكم العاهرات للبابوية شهدت أوج ازدهارها فى عهد البابا يوحنا العاشر ونلاحظ أن البابوية انتسبت إلى منظومة الانحراف الأخلاقى لعاهرات أدركن كيف يؤسسن حُكما سياسياً قائماً على الإباحية واستغلال الجسد لخدمة أطماعهن السياسية؛ فأصبحت القضية لا تعتمد على نساء من قاع المجتمع اخترن طريق الانحراف طوعاً أو كرهاً، بل أصبحت القضية قائمة على نساء من الطبقة الأرستقراطية وعلية القوم ارتبطن بحكام وأمراء وملوك افترسن المنظومة البابوية وابتلعنها، وإذا ما أمعنا التدقيق فى شخصية البابا يوحنا العاشر سنجد أنها لرجل أعماه الطمع ولا ينتمى لأسرة ارستقراطية قد تشكل له عصبية أو عزوة تحميه وتشد عضده، وشخصية بهذا الوصف لايمكنها أن تدرك قيمة نفسها الحقيقية حتى وإن اعتلت أعلى المراتب لأنه فى قرارة نفسه يدرك عدم استحقاقه لأى منصب وأنه لا يمتلك من ثمن كرسى البابوية إلا ما سدده على فراش العاهرات، ليظل ألعوبة فى يد العاهرات ومن احتمى بهن من رجال الحكم والسياسة، فتنازل بذلك عن إرادته الحرة وكبريائه ليضمن استمراره على كرسى البابوية؛ وبذك أسقط البابا يوحنا العاشر من يديه أهم ورقة ضغط على الامراء والحكام والأباطرة آنذاك آلا وهى ولاء عامة المسيحيين والمؤمنين المرتبطين روحياً بالبابوية –ولا شك أنها ورقة لا يمكن اغفالها– لكن بابوات تلك الفترة المظلمة استبدلوها بعاهرات الطبقة الأرستقراطية فكان ذلك بئس للبابوات بدلا.

ولأن العاهرة ثيودرا كانت قد أحكمت قبضتها على يوحنا العاشر لصالح زوجها ، لكنها ماتت وحلت محلها ابنتها ماروزيا وزوجها جويدو دوق توسكانى Guido, Duke of Tuscany (٩١٥– ٩٢٩م) بمصالح وأجندة جديدة تخدم أهدافهما فأخذا يُحكمان قبضتهماعلى روما وماحولها، لكنهما اصطدما برغبة يوحنا العاشر– عشيق أمها الراحلة– فى التخلص من سيطرتهما واستشعرا منه قلقاً بعد أن قام بتعيين شقيقه بيتر Peter دوقاً على

سبوليتو Spoleto (٩٢٤- ٩٢٨م) وأخذ يكرمه ويغدق عليه بالدعم، وفى نفس الوقت أخذ يوحنا العاشر فى التقرب من هيو أف بروفانس Hugh of Provence (٨٨٠- ٩٤٧م) شقيق جويدو أف توسكانى الذى كان يراسل جيرانه من أمراء وملوك أوروبا لكسب ودهم واحترامهم بل إن يوحنا العاشر أرسل له مبعوثاً يستقبله ويدعوه أن يعلن نفسه ملكاً على إيطاليا [١٧] وهو ما يعتبر إعلاناً للعداء والحرب صراحةً على ماروزيا وزوجها جويدو، وحينما نمعن التفكير فى سبب تركيز البابا فى منح سبوليتو إلى شقيقه بطرس؛ سندرك أن الموقع الحيوى لمدينة سبوليتو فى وسط إيطاليا على حدود ممتلكات البابوية يضمن لمن يحكمها طريقاً مفتوحاً للسيطرة على ممتلكات البابوية فى وسط إيطاليا حتى مدينة روما؛ وبالتالى يسهل على البابا الخروج من قبضة ماروزيا وزوجها؛ ولهذا كان التخلص من البابا يوحنا العاشر هو الخطوة المنطقية لدعم نفوذهما.

وبمزيد من التتبع لشبكة علاقات ماروزيا سنجد أن قتل البابا يوحنا العاشر يضمن لها مصالح شخصية مباشرة، أولها دعم نفوذ ابنها ألبريك الثانى أف سبوليتو Alberic II of Spoleto (٩٠٥- ٩٥٤م) حاكم روما، وفى نفس الوقت تفتح الطريق لإبنها يوحنا لكرسى البابوية – وهو ما سيتحقق بالفعل ليصبح فيما بعد ابنها هو البابا يوحنا الحادى عشر John XI (٩٣١- ٩٣٥م) [١٨] ، وتكون بذلك ماروزيا قد جمعت فى يديها السلطة الزمنية عن

(١٧)Liutprand of Cremona: Antapodosis, pp. 116, 118,132; Jerry L. Walls: The Problem of Bad Popes" The Argument from Conspicuous Corruption", in Perichoresis, vol. 18, Houston Baptist University, 2020, p. 89.

(١٨) البابا يوحنا الحادى عشر John XI كان فى الحادى والعشرين من عمره حينما تولى البابوية وقد أكد ليتبراند أف كريمونا أنه جاء من علاقة غير شرعية مع ماروزيا والبابا سرجيوس الثالث ، وهو ما أيده بلاتينا فى حوليته عن البابوات وأضاف بأن ميلاده كان نذير شؤم حيث ولد حينما تدفقت نافورة بالدماء فى جنوة وبعدها توالت النكبات على =

طريق زوجها وإبنها ألبرت الثانى أف سبوليتو، وكذلك أعلى سلطة دينية من خلال إبنها يوحنا الحادى عشر.

كان قدوم بطرس أف سبوليتو لزيارة شقيقه البابا يوحنا العاشر هى الفرصة التى قامت ماروزيا وزوجها باستغلالها بذكاء وخبث شديدين؛ فقام جويدو وماروزيا بجمع عدد كبير من قواتهما سراً واستغلا اجتماع البابا مع أخيه وبعض أصدقائهما فى قصر اللاتيران وانقضوا عليهم فمزقوا جسد بطرس أمام أعين شقيقه البابا يوحنا العاشر ثم ألقو القبض على البابا ووضعوه فى السجن حيث مات بعدها بقليل، وقد أشار ليتوبراند أف كريمونا أن البابا قُتل خنقاً عن طريق كتم أنفاسه بوسادة وضعت على فمه حتى مات خنقاً، وأنه بمجر موت البابا قامت ماروزيا بتعيين ابنها يوحنا بابا تحت اسم يوحنا الحادى عشر. وبمقارنة الأحداث مع كتاب بارثليميو أف بلاتينا سنجد أن يوحنا الحادى عشر لم يتول الكرسى البابوي بعد موت يوحنا العاشر مباشرة لأن هناك رجلين آخرين توليا البابوية قبله وهما البابا ليو السادس Leo VI (٩٢٦-٩٢٩م) والبابا ستيفن السابع (٩٢٩- ٩٣١م) وهو ما أكده بلاتينا فى كتابه عن حياة البابوات، كذلك توافق مع أحداث ليتوبراند أف كريمونا عن مصير البابا يوحنا العاشر حول وضعه فى السجن وتشفى فى مصيره موضحاً أنه يستحق ما حدث له؛ لأنه كما اعتلى الكرسى البابوى دون وجه حق بمساعدة عشيقته ثيودورا فإن العدالة الإلهية جعلت عزله من الكرسى البابوى على يد ابنتها ماروزيا العاهرة التى لا تقل عن أمها سوءًا وعلى الرغم من أنه

=أوروبا حينما جاء الأغالبة من أفريقيا ودخلوا إيطاليا ودمروها وشغل الكرسى البابوى لمدة أربع سنوات وعشرة أشهر وخمسة عشر يوماً. أنظر :

Platina, B.: The Lives of The Popes "from The Tim of our Saviour Jesus Christ to The Accession of Gregory VII", pp. 248- 249; Liutprand of Cremona: Antapodosis, p. 132.

لم يذكر طريقة موته إلا أن مترجم المصدر وضع فى حاشيته قصة اغتيال يوحنا العاشر خنقاً [١٩].

لعل الأحداث السابقة بصبغتها الدموية تطرح سؤالاً جوهرياً وهو رد فعل المسيحيين من الأمراء والعامة على مصير البابا يوحنا العاشر الذى اعتبروه فى وقت من الأوقات بطلاً قومياً بعد أن قاد بنفسه جيوش المسيحيين التى انتصرت على المسلمين فى معركة كارجليانو Garigliano ٩١٥م، ومن المفترض أن يثير ماحدث المسيحيين الكاثوليك بعامة والإيطاليين بخاصة، فقد أكدت حولية فلودوراد أف ريمز أن الحجاج القادمين من فرنسا إلى روما كانوا يحملون أخبار البابا الذى سجنته امرأة قوية تدعى ماروزيا وأنها زوجة جويدو شقيق هيو [٢٠]، ومع ذلك لم يحرك أحد ساكناً وكأن البابوية بمعزلٍ عن العالم فلم يعد هناك من يدافع عنها أمام انتهاكات وتجاوزات أدواق وحكام إيطاليا؛ الذين نجحوا فى عزل البابوية عن فرنسا أو ألمانيا أو غيرها من بلاد الغرب الأوروبي الكاثوليكى، وكأن عزل البابا يوحنا العاشر وسجنه ثم اغتياله قضية لا تعنى لهم شيئا، والأشد غرابة أنه رغم وفاة جويدو زوج ماروزيا بعدها بفترة قليلة أسرعت بعرض نفسها على شقيق زوجها الراحل هيو أف بروفانس وأخبرته صراحةً أنه إذا أراد دخول إيطاليا ليصبح ملكها دون منازع فعليه أن يتزوجها وكأن عرش إيطاليا كان ثمن سكوته عن دماء البابا يوحنا العاشر.

(١٩) Platina, B.: The Lives of The Popes "from The Tim of our Saviour Jesus Christ to The Accession of Gregory VII", pp. 246- 247; Liutprand of Cremona: Antapodosis, p. 132.

(٢٠)Ibid., p. 133; Flodoard, of Reims: Les annales de Flodoard, une Introduction et des Notes par Lauer p., A. Picard et Fils editeurs, Paris , 1905, p. 44.

المحور الثالث

الدعاية السلبية لتشويه سمعة البابوية فى صراعها مع الدولة

يعتبر هذا المحور حلقة فى سلسلة الصراع بين الدولة والكنيسة حيث أجادت الدولة استغلال أدواتها المتاحة لتشويه سمعة البابوية وسهل عليها الأمر كون البابوية لم تبتعد آنذاك عن مسارها الذى حددته لها عاهرات إيطاليا حينما جلس نسلهم على الكرسى البابوى؛ فاعتلى الكرسى البابوى يوحنا الثانى عشر John XII [٢١] الذى يعد أكثر بابوات الكاثوليك الذين ارتبطت ذكراهم بسوء السمعة والإنحلال الأخلاقى، ولكن حينما تنظر للأمر من الناحية الإنسانية تشعر بالرثاء لحاله فهو جانٍ ومجنى عليه؛ فهو مراهق أقرب ما يكون لطفل أكثر من كونه رجلاً حيث أكدت غالبية المصادر المعاصرة أنه اعتلى الكرسى البابوى بناء على أوامر مباشرة من والده، وهو فى الثامنة عشرة من عمره وتحديداً منذ السادس عشر من ديسمبر عام ٩٥٥م حتى الرابع عشر من شهر مايو عام ٩٦٤م وقد كان مراهقاً جامحاً قضى وقته فى ارتكاب كافة الرذائل والشرور ويقضى أوقات فراغه فى الصيد لا الصلاة فكانت فترة بابويته إهانة للبابوية[٢٢]، ويلاحظ هنا أن البابا يوحنا الثانى عشر ضرب رقما قياسيا لم يتحقق من قبل فى عمر من جلس على كرسى القديس بطرس ، وأنه

---

(٢١) ولد البابا يوحنا الثانى عشر فى فيا لاتا Via Lata – وسط روما – عام ٩٣٧م، وكان اسمه بالمولد أكتافيانوس Octavianus ينتمى لأسرة من أقوى نبلاء توسكالم التى سيطرت على شئون البابوي وإدارتها فوالده هو ألبريك الثانى Alberic II of Spoleto (٩١٢-٩٥٤م) حاكم روما وجدته لوالده ماروزيا Marozia وأخوه غير الشقيق هو البابا يوحنا الحادى عشر John XI (٩٣١- ٩٣٥م) وبهذا يكون يوحنا الحادى عشر هو عم يوحنا الثانى ،عشر انظر:

Platina, B.: The Lives of The Popes, p. 252; Liudprand of Cremona: "Antapodosis" , pp. 92 – 93.

(٢٢)Platina, B.: The Lives of The Popes "from The Tim of our Saviour Jesus Christ to The Accession of Gregory VII" , p.252.

لم يسبق أن تولى كرسى البابوية رجل فى هذا العمر الصغير إلا عمه البابا يوحنا الحادى عشر وكان عمره واحدا وعشرين عاماً حينما تولى البابوية .

ويمكننا القول أن انتخاب البابا يوحنا الثانى عشر جاء استمراراً للنهج الذى اتبعته عاهرات إيطاليا ثيودورا وماروزيا من قبل فى التحكم ببابوات روما، حيث أيقن ألبرت الثانى أف سبوليتو الدرس جيداً وهو أن من يريد السيطرة على إيطاليا آنذاك فعليه التحكم فيمن يعتلى عرش البابوية وعلى الرغم من انقلابه على والدته ماروزيا وسجنها ليتخلص منها ومن زوجها الجديد هيو أف بروفانس الذى حمل لقب ملك إيطاليا آنذاك [٢٣] ، إلا أنه لم يتخل عن اسلوبها فى إدارة البلاد، ولهذا جعل النبلاء يقسمون بأن ينتخبوا ابنه أوكتافيوس- يوحنا الثانى عشر فيما بعد- ليعتلى الكرسى البابوى بمجرد وصوله سن الثامنة عشرة ، وهو ما حدث بمجرد موت البابا أجابتوس الثانى Agapetus II (٩٤٦ – ٩٥٥م) حيث تم انتخابه رغم حداثة عمره لدرجة أن أحد المؤرخين يوكد أنه كان فى السادسة عشرة من عمره حينما تولى الكرسى البابوى وليس فى الثامنة عشرة -كما سبق الذكر- ، وهو ما انعكس بشكل كامل على مدى استجابة أمراء وحكام إيطاليا للبابا صغير السن الذى يفترض به أن يفرض احترامه على الجميع، ولكنه سرعان ما سقط فى الاختبار لدرجة أن حولية سالرنو وصفته بأنه شاب صغير ارستقراطى مدمن على الرذائل

(٢٣) بعد وفاة جويدو أرسلت ماروزيا تدعو شقيقه هيو ليحل محله ويكون ملك إيطاليا بلا منافس وبالفعل جاء هيو مسرعاً لكنه ارتمى فى فراش ماروزيا لدرجة ابتعاده عن جنوده الذين كان معسكرهم خارج القلعة التى يقيم فيها مع ماروزيا، وفى ذات الوقت كان ألبريك الثانى أف أوستيا يعانى من تصرفات ولادته اللاهية وزوجها الجديد الذى كان لا يتوانى عن إهانته لدرجة أنه صفعه بالقلم أمام الحاشية وهو ما دفع ألبريك للانتقام لكرامته وحرض البلاط ورجال الدين وجمع قواته وقام بإلقاء القبض على أمه ماروزيا بينما فر هيو هارباً قبل أن يقع فى قبضة ألبريك ، وقد تم سجن ماروزيا وخاطب ألبريك مؤيديه يستعديهم على أمه وزوجها قائلا: أن روما سقطت فى الوحل وخضعت لحكم العاهرات .
Liutprand of Cremona: Antapodosis, pp. 134- 135;

غارق فى الملذات [٢٤]، مما يدل على أن معارضى البابا كانوا متأكدين أنه ليس بكفاءة والده فطمعوا فيما تحت يده من أراضى وممتلكات البابوية .

بيد أن البابا يوحنا الثانى عشر سرعان ما لبس رداء الحرب ليثبت جدارته التى أصبحت محل شك لدى خصومه، وكان عليه الظهور كبابا وأمير فى نفس الوقت فقاد بنفسه جيشاً لمهاجمة لاندولف الثالث حاكم كابوا وبنيفيتو[٢٥] Benevento (٩٥٩– ٩٦٨م) لاستعادة بعض الأراضى البابوية التى استولى عليها ، فرد حاكم كابوا وبنيفيتو على البابا بالاستنجاد بجيزولف الأول أف سالرنو Gisulf I of Salerno (٩٥٢- ٩٧٧م) ليشكلا جبهة ضد البابا يوحنا الثانى عشر الذى اضطر للاستسلام وأرسل رسولاً إلى جيزولف يدعوه للصلح، ثم مالبث أن ذهب البابا بنفسه لمقابلته ووقع معه اتفاقية تخلى بموجبها عن سالرنو وأقر بانها لم تعد تابعة لممتلكات البابوية ، وعلى الرغم من أن المصدر المعاصر أكد أن سالرنو كانت تعانى من مرض الطاعون الذى استشرى فى المدينة وأن الجبهة الداخلية لجيزولف مهددة ، لدرجة أن كثيراً من البيوت أصبحت فارغة بعد موت أصحابها كما أن المدينة عانت من الأمطار الشديدة والرعود والآفات التى لم يشهدها أحد من قبل[٢٦]، إلا أن

---

(٢٤)Anonymous:Chronicon Salernitanum , A critical edition with Studies on Literary and Historical Sources and on Language , a cura di U. Westerbergh, Stockholm, 1956, p. 166; Ferdinand Gregorovius: op.cit., pp. 328- 330.

(٢٥) تقع بنيفنتو شمال شرق نابولي ، وكان اسمها في بداية الأمر Maleventum، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية malon وتعنى التفاح . بينما يري الألمان أنها تعنى موقع الرياح السيئة . وقد ألحقها النورمان بمملكة صقلية كدوقية، كان يحكمها نائب بابوي حتى أجتاحها الإمبراطور فردريك الثاني، ومن بعده مانفريد الذي قتل بها في السادس والعشرين من فبراير عام ١٢٦٦م . أنظر:

Christopher Kleinhenz: Medieval Italy: An Encyclopedia , vol. 1 , New York Published by Routledge, 2004 , pp. 106 , 107 .

(٢٦)Anonymous: Chronicon Salernitanum, pp.166 – 168.

البابا يوحنا الثانى عشر كان فى حالة من الضعف جعلته يتقبل هذه التنازلات بسهولة رغم الجبهة الداخلية المنهارة لعدوه .

والحقيقة أن انهيار الجبهة الداخلية للأراضى البابوية أيضاً وحالة الضعف المهينة فى عهد البابا يوحنا الثانى عشر جعل من الأراضى البابوية ساحة للصراع المتشابك بين حكام ألمانيا وحكام إيطاليا، وهو ما تجلى بوضوح فى قيام برنجار الثانى ملك إيطاليا Berengar II of Italy (٩٥٠- ٩٦١م) بالتوسع فى إيطاليا على حساب الأراضى البابوية التى أصبحت نهباً مشاعاً للطامعين فاضطر يوحنا الثانى عشر إلى إرسال مبعوث بابوى للاستنجاد بأوتو الأول Otto I (٩٦٢- ٩٧م) وقام بتتويجه إمبراطوراً مقدساً مقابل حماية البابوية وصد هجمات أدواق بنيفيتو وكلابريا وأبوليا الذى وُصف تعاملهم مع البابا يوحنا بأنهم مارسوا ضده أشد أنواع الاستبداد والطغيان لدرجة أن أوتو اعتبر نفسه يحارب من أجل السيد المسيح ، حتى تمكن فى نهاية الأمر من حصار برنجار وهزيمته هزيمة ساحقة بعد أن تخلى عنه جنوده وقواده بسبب همجيته وكراهيتهم له ؛فاضطر فى نهاية الأمر إلى الاستسلام للإمبراطور أوتو وظل أسيراً لديه فى المنفى لمدة عامين حتى وفاته بعد أن هجره الجميع[٢٧]. وبالتدقيق فيما سبق يتبين لنا أن البابا يوحنا الثانى عشر كان فاشلاً فى إدارة البابوية من الناحية الدينية والدنيوية وكانت أقرب الحلول إليه هى الاستسلام والتنازل عن ممتلكات البابوية أو الهرولة لمن يستجدى منه الحماية متجاهلاً هيبة البابوية، وهو ما ترتب عليه وقوع البابوية فى مستنقع

(٢٧)Thietmar of Merseburg: The Chronicon of Thietmar of Merseburg "Ottonian Germany", trans. & annotated by David A. Warner , Manchester University Press, Manchester , New York, 2001, pp. 100-101; Liutprand of Cremona " Chronicle of Otto's Reign" , pp. 215- 216; Arnulf Of Milan: The Book Of Recent Deeds, Trans. by W.L. North, from the edition Of Claudia Zey (MGH Scriptors Rerum Germanicarum 67),Hannover, 1994, the first book, chapter 6.

الهيمنة والنفوذ الألمانى، بعد أن ظلت البابوية فى قبضة العائلات الإيطالية لعقود طويلة نجحت خلالها فى تحجيم أى تدخلات خارجية شرقاً أوغرباً ومنعها من التسلل تحت عباءة البابوية.

سقطة أخرى رصدتها المصادر المعاصرة فى سياسة البابا يوحنا الثانى عشر استغلها أعداء البابوية لتدخل فى إطار تشويه سمعة البابوية وحلفائها والترويج لفكرة ارتمائهم فى أحضان المسلمين العدو التقليدى للغرب الأوروبى آنذاك، وتمثلت تلك السقطة فى علاقة البابا يوحنا الثانى عشر بملك إيطاليا السابق أدالبرت Adalbert (٩٥٠- ٩٧١م)- ابن برنجار الثانى- فى عام ٩٦٢م حينما أكد المصدر المعاصر أن البابا لم يكتف بنقض العهد ويمين الوفاء للإمبراطور أوتو بل ومد يده إلى أدالبرت الذى ذهب إلى المسلمين بفراكسنيتوم Fraxintum [٢٨] ووضع نفسه تحت حمايتهم ولهذا أكد المصدر

(٢٨) إمارة فراكسنتيوم أو إمارة جبل القلال استمرت هذه الإمارة ٢٧٧ – ٣٦٥هـ / ٨٩٠ – ٩٧٥م ؛ أى ما يقرب من خمسة وثمانين عاماً ، يرى بعض المؤرخين انها تقع فى خليج سانت تروبيز St. Tropez فى المعبر بين فرنسا وإيطاليا عند جبل المور ، أما مؤرخو إيطاليا فيرون أنها تقع فى إقليم البروفانس عند مدينة آرل Arles أو خلف جبال الألب ولكن المرجح أنها أسست على الموقع الذى توجد عليه قرية لاجارد فريينه – La Garde Freinet وقد اتخذها المسلمون قاعدة ومستقراً لمهاجمة إيطاليا وسويسرا وسواحل فرنسا ، وقد تمكنوا من قطع الطريق عن إيطاليا وفرضوا رسوماً لعبور الحجاج القادمين إلى روما لدرجة أنهم كانوا يشتبكون معهم مثلما حدث مع حجاج إنجلترا الذين كانوا فى طريقهم إلى روما عبر ممرات جبال الألب فى عام ٩٢١م ، وكذلك فى عام ٩٢٩م ، وقد تصدى لهم هيو أف بروفانس فاعتبره الإيطاليون منقذهم وبناء على ذلك قاموا بتتويجه ملكاً على إيطاليا ٩٢٦م ، واستمر تلاعب مسلمى فراكسنتيوم بالقوى الأوروبية بسبب حالة الصراع بين ملوك وأمراء أوروبا إلى أن تم القضاء على المسلمين بعد هزيمتهم فى معركة تورتور Tourtour على يد وليم كونت البروفانس عام ٩٧٥م . انظر:

Flodoard, of Reims: Les annales de Flodoard,pp. 5 – 6, 19;=

المعاصر صدمة الإمبراطور أوتو الذى تساءل كيف استطاع البابا يوحنا الثانى عشر أن يتحالف مع هذا الرجل الذى وضع يده فى يد المسلمين أعداء البابوية والعالم المسيحى الذين لم يتوانوا عن التعرض حتى للحجاج القادمين إلى روما –كما سبق الذكر– [٢٩]، ومما سبق يتبين لنا أن مشروع حصار المسلمين الذى وضع بذوره البابا يوحنا الثامن تعرض للخيانة ولضربة شديدة من البابا يوحنا الثانى عشر؛ حيث أراد الإمبراطور الألمانى أوتو وضع البابا فى إطار الخائن الذى باع القضية مقابل عزل إيطاليا عن التدخلات الألمانية التى كان البابا يوحنا الثانى عشر بنفسه هو من استدعاها فى المقام الأول لتخليصه من برنجار الثانى الملك السابق؛ فأصبح البابا يدور فى حلقة مفرغة ويتقلب بين أصدقائه وأعدائه يوما بعد يوم فى تخبط وخيانة للمشروع البابوى الإمبراطورى سابق الذكر، كما أن استغلال فكرة تهديد المسلمين للحجاج القادمين إلى روما وتعرضهم للسلب والقتل على يد المسلمين، تحدث نوعاً من الحشد الشعبى لمشاعر العامة الغاضبة والمتطرفة فى كراهيتهم للمسلمين آنذاك.

عند هذا المنحى لزم التدخل المباشر من الإمبراطور أوتو للتخلص من البابا يوحنا الثانى عشر لإقصائه عن المشهد السياسى الذى امتلأ بالعبثيه واللامعقول؛ فتم عزل البابا سياسياً ودعائياً عن طريق إعلان جرائمه الأخلاقية وفضائحه الجنسية فى مجمع روما الكنسى عام ٩٦٣م وقد اجتمع فيه حشد غفير من الأساقفة والكاردينالات وحضر شهود يثبتون التهم الكنسية والأخلاقية على البابا يوحنا الثانى عشر؛ فها هو ذا البابا يقع فى غرام أرملة أحد تابعيه

=وفاء مختار غزالى : تاريخ المسلمين فى فراكسنتيوم (٢٧٧ – ٣٦٥هـ / ٨٩٠ – ٩٧٥م)، فى مجلة المؤرخ العربى، العدد ١٩، أكتوبر ٢٠١١م ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤ ، ٣٣٤ ، ٣٤٨ – ٣٤٩.

(٢٩) Liutprand of Cremona " Chronicle of Otto's Reign" , pp.216-217; Flodoard, of Reims: Les annales de Flodoard, pp. 5 – 6, 19.

ويدعى Rainer ويجعلها حاكمة على إحدى المدن التابعة للبابوية ثم يعطيها المفاتيح والكؤوس الذهبية التى كان يمتلكها القديس بطرس بنفسه، وها هى ستيفانا Stephana محظية والد البابا يوحنا الثانى عشر والتى أنجبت له طفلاً لم تسلم هى الأخرى من البابا، فى الوقت الذى خيم الصمت على روما فأصبح قصر اللاتيران الذى كان فيما مضى مأوى القديسين لا يسمع فيه إلا صوت العاهرات والغانيات؛ فخافت النساء من الذهاب لكنيسة بطرس الرسول حتى الحجاج انقطعت وفودهم بعد أن انتشرت الأخبار بأن البابا يوحنا الثانى عشر فى أكثر من مرة كان يأخذ النساء من الحجاج ويجبرهم بالقوة على النوم فى سريره ولم تنج منه زوجة أو أرملة أو عذراء، وحتى ابنة أخته لم تسلم منه وباتت خطاياه وفجوره حتى فى أقاربه بالدم وشهد عليه كثير من الأساقفة والكاردينالات الذين باتوا فى مرمى عبثه وفجوره ، وشهدوا عليه ببيع المناصب الكنيسة، وقيامه بترسيم أحد رجال الدين فى إسطبل الخيل ، وقام بخصى أحد الأساقفة حتى مات بعد أن نزفت دماؤه، وكان يشرب الخمر فى نخب الشيطان وآلهة روما القديمة فينوس وجوبتر(٣٠). وبتحليل ما سبق وكمية الجرائم التى تم توجيهها إلى البابا يوحنا الثانى عشر يستشعر القارئ أن تعدد الجرائم وتنوعها ما بين جرائم كنسية وأخلاقية بشكل أقرب للمبالغة وتهويل الصورة وكأن البابا هو الشيطان متجسداً على الأرض ، وصولاً إلى إتهامه بالكفر وشرب الخمر نخباً للشيطان والآلهة الوثنية القديمة فى رومان وإن كان هناك احتمال بأن البابا بالفعل ارتكب بعضها فإن هناك احتمالاً آخر بأن الدعاية السياسية للإمبراطور أوتو استلزمت تشويه صورة البابا بهذا الشكل المبالغ فيه خاصة أن من رواها وروجها هو المؤرخ ليتوبراند أف كريمونا وهو من العائلة المالكة وعلى صلة قرابة بالإمبراطور أوتو ولهذا لم يخف تحامله على البابا وكراهيته له.

(٣٠) Liutprand of Cremona " Chronicle of Otto"s Reign" , pp. 217 , 221, 223.

بيد أن هناك إشكالية واضحة فى طبيعة الصراع بين الإمبراطور أوتو والبابا يوحنا الثانى عشر وهى أن إتهام البابا كان مجرد سرد شفوى لرجال دين قد يكونون على عداوة مع البابا أو طامعين فى مكاسب شخصية أو مناصب كنسية فبالغوا أو تجنوا ، وبذلك لا يمكن إدخال هذا الصراع فى إطار فكرة الصراع بين الدولة والكنيسة؛ لأن الصراع هنا يتلخص فى معرفة من له سلطة محاسبة الآخر؛ فلا يحق لأوتو أن يحاكم البابا ولا يحق لرجال الدين عزل البابا ، ولهذا سنجد أن الأمور تحولت لشكل من أشكال العبثية والفوضى، لأن اختيار البابا منذ أمد بعيد لم يعد شأناً عالمياً يخص العالم المسيحى بل هو شأن داخلى يخص الأرستقراطية الإيطالية التى احتكرت انتخابات البابوية وأخضعتها لمصالحها الشخصية منذ اغتيال البابا يوحنا الثامن أو البابوات المقتولين غدراً ، فبأى سلطة يحاكم أوتو البابا؟! فتكون محاكمة البابا فعلاً مستحدثاً وبدعة لم يأت بها أى ملك أو إمبراطور كارولنجى من قبل؛ وحتى الإمبراطور شارلمان Charlemagne (٧٤٨-٨١٤م) الذى أعاد البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥- ٨١٦م) لكرسى البابوية بعد أن هاجمه أعداؤه ومعارضوه وأرادوا التمثيل به وسمل عينيه وقطع لسانه، فجاء شارلمان بنفسه إلى روما وأعاد البابا لمنصبه [٣١] ليرسى بذلك مبدأ " أن البابا يُحاكِم ولا يُحاكَم".

بيد أن تحالف رجال الدين المعارضين للبابا مع الإمبراطور أوتو فى مجمع روما الكنسى أظهر نوعاً من الانقلاب الدينى والسياسى على البابا يوحنا الثانى عشر جعل أعداء البابا يتحدون ضده فى جبهة واحدة بدليل أن البابا اضطر للهرب حتى لا يحضر مجمع روما رغم استدعاء الإمبراطور له ليحاكمه ويضع البابا فى خانة المتهم المجبر على الرد على تلك الاتهامات وإلا سيتم خلعه من منصبه وانتخاب بابا جديد، ولهذا أرسل البابا يوحنا الثانى

(٣١)Einhard : The Life of Charlemagne , Tran. By Samuel Epes Turner, Harper brother, New York, 1880 , p. 65 – 66 .

عشر متمسكاً بآخر حق له بموجب الكرسى البابوى وهو التهديد بالحرمان إن هم أقدموا على خلعه وانتخاب بابا آخر غيره ، لكن الإمبراطور ورجال الدين لم يأبهوا بذلك وقاموا بإنتخاب البابا ليو الثامن Leo VIII (٩٦٤- ٩٦٥م) والذى عرف كبابا معارض للبابا يوحنا الثانى عشر، وقد أكد ليتوبراند أف كريمونا أنه أقسم يمين الولاء للإمبراطور أوتو وخر عند قدميه فعلاً لا مجازاً راجياً منه أن يمنح ثقته للرومان ويعفو عن الرهائن فاستجاب له الإمبراطور فكان البابا ليو كالحمل الذى وقع فى غرام الذئاب [٣٢]. ومما سبق يتبين لنا أن الإمبراطور أوتو أراد استخدام سياسة العفو واللين عن الإيطاليين لكسب ولائهم والترويج لصورته كحاكم رحيم يتجاوز عن رعاياه، وكانت دموع البابا ليو الثامن وتوسلاته تحت أقدام الإمبراطور هى ثمن العفو عما سلف .

لم يتخل الإيطاليون عن عاداتهم طويلاً وسرعان ما نقضوا عهدهم للإمبراطور أوتو وثاروا ضده واضطر البابا ليو للهرب؛ وهو الموقف الذى استغله البابا يوحنا الثانى عشر حينما أخذ يراسل الثوار بمساعدة أصدقائه وأتباعه خاصة من النساء اللاتى كن يخرجن معه فى نزهاته؛ كما سعى البابا يوحنا الثانى عشر إلى استخدام ثروات البابوية كرشوة لمؤيديه لدرجة أن المصدر المعاصر أوضح بانه وعدهم بكل ذهب القديس بطرس كمكافأة لمن يقتل الإمبراطور أوتو والبابا ليو الثامن، ليعود يوحنا الثانى عشر بعد أن ظل مبعداً عن روما لما يقرب من شهرين، وعقد مجمعاً دينياً أصدر فيه قرار الحرمان ضد ليو الثامن ومن انتخبه من كرادلة ليحل محله على الكرسى البابوى لدرجة أنه قام بقطع لسان أحد الكاردينالات وجدع أنفه وقطع أصبعيه

(٣٢)Liutprand of Cremona "Chronicle of Otto"s Reign", pp. 223, 2260, 229 – 230; Joannes Papa XII Anno Domini DCCCCLXIII (963) , in Patrologiae latina, Jacques-Paul Migne, Tomus CXXXIII (133), 1853, pp. 1013- 1014, 1037; Attonis Vercellensis Episcopi: Opera Omnia Accedunt Leonis VIII Antipapa Epistolae et Constitutiones , in Patrologiae latina , Jacques-Paul Migne , Tomus CXXXIV (134), 1853. p.989.

، وقام بجلد البعض [٣٣]. وهنا يتبين لنا الخطأ الاستراتيجى الذى وقع فيه يوحنا الثانى عشر إذ بادر بالانتقام والتنكيل بمعارضيه خاصة من الكاردينالات ورجال الدين بدلاً من توحيد الصف واستغلال انقلابهم وثورتهم على الإمبراطور أوتو والبابا المعارض ليو الثامن، فخلق حالة من التفكك والانقسام لا يمكن تداركها ، كما أن ترديد المصدر بأن البابا عاد بفضل النساء اللواتى كان يصاحبهن فى رحلات الصيد يدل على عودته بفض علاقاته النسائية ومكر النساء وهو سلاحه الأول والأخير فى مواجهة الإمبراطور، أو هكذا أراد أنصار الإمبراطور إظهار البابا كرجل ضعيف يحتمى بالنساء، بينما تحكمه بالرجال من النبلاء ورجال الدين كان يستلزم قوة عسكرية لا يملكها، وكان الأولى بالبابا يوحنا الثانى عشر محاولة تصحيح صورته المشوهة فى أعين رجال الدين ليثبت تحوله من رجل عابث لاه إلى رجل عائد لصوابه يليق بمنصب البابوية ولكن هيهات.

فى غمرة احساس البابا يوحنا الثانى عشر بنشوة النصر أمن على نفسه وظن أن لا يقدر عليه أحد واستمر فى مجونه وعبثه وكانت نهايته من نسج يده إذ استمر فى علاقاته المشؤومة مع النساء وتجاهل غضب المحيطين به؛ وفى يوم استغل البابا فيه إمرأة متزوجة ليقيم معها علاقة آثمة، وإذ بزوجها المخدوع يقتحم غرفة النوم ثائراً لينقض على رأس البابا يوحنا الثانى عشر ليهشمها ورغم محاولات إسعاف البابا إلا أنه ظل يعانى من إصاباته البالغة لمدة أسبوع تقريباً على قول ليتوبراند أف كريمونا، بينما أوضح سجل البابوات أنه مات بعد ثمانية أيام فى شهر مايو ٩٦٤م متأثراً بالضربات التى تلقاها فى فراشه على يد زوج عشيقة البابا الثائر لشرفه، ولم يكن موته لأنه أدين بعمله أو أعدم بعدل، ولكن لأن الشيطان أغواه ليلقى حتفه، وأن الجميع يعرف أن

(٣٣)Liutprand of Cremona "Chronicle of Otto"s Reign", pp.230-231; Ferdinand Gregorovius: History of the City of Rome in the Middle Ages, vol. 3, pp.350-351.

خلفاء بطرس وبولس على الكرسى الرسولى نالوا وعد المسيح بالأخلاق لا بالإيمان فقط [٣٤]. وبهذا يكون قتل البابا يوحنا ٩٦٤م هو الحد الفاصل لعصور البابوية المظلمة عن ما تلاها من عصور ، صحيح أن تاريخ البابوية لم يخل من اغتيالات وانحرافات أخلاقية وانهياراً فى موروث السمو البابوى وتشويه متعمد لسمعة البابوية وفجر فى الخصومة والإنحلال الخلقى كما حدث فى عصور البابوية المظلمة.

(٣٤)Liutprand of Cremona "Chronicle of Otto"s Reign", p. 231; Joannes Papa XII, in Patrologiae latina, Tomus CXXXIII (133), p.1014.

الخاتمة

لقد كان إجهاض الموروث الدينى للسمو البابوى فى عصور البابوية المظلمة ثمرة حرمانها من دعم الأباطرة والملوك الأقوياء فى الغرب الأوروبى فى الفترة من ٩٠٣م وحتى عام ٩٦٤م، فتم اختطاف البابوية معنويا من قبل الأرستقراطية الإيطالية التى تعمدت استضعاف البابوات واختيار شخصيات لاترقى لخطورة المنصب البابوى ؛ فارتضى أولئك البابوات أن يكونوا ألعوبة فى يد العائلات الأرستقراطية المحلية فى إيطاليا؛ والتى كان رجالها ونساؤها على استعداد للقتل والاغتصاب والسرقة لضمان إخضاع بابوات روما لنفوذهم ومصالحهم السياسية، وعلى خط موازٍ كان بابوات العصور المظلمة على مدار ستين عاماً لم يتوانوا عن القتل والاغتصاب والسرقة لضمان كرسى البابوية، الأمر الذى وضع بابوات العصور المظلمة فى إطار بشرى شابته في كثير من الأحيان سمات الجشع والعنف والسعى إلى القوة الممزوجة بالآثام والرغبات والتطلعات التى أخذت من رصيدهم وهيبتهم أمام الحكام والمحكومين على السواء.

بالنظر إلى واقع العصور البابوية المظلمة لم يكن مستغربا أن غالبية البابوات فى تلك الفترة لم تتجاوز فترة بابويتهم عامين أو ثلاثة لقضاء منفعة محددة أو لشغل المنصب البابوى مؤقتاً انتظاراً لشخصية بعينها ترتضيها العائلات الأرستقراطية، ومن زادت فترة بابويته عن ذلك وخرج عن الإطار المحدد له كان مصيره الاغتيال والقتل وهو السلاح الحاسم لحل النزاع البابوى بين الحكام والبابوات وبين البابوات وبعضهم البعض، كل هذا ترك أثره على فكرة السمو البابوى كموروث دينى تناقلته الأجيال فى العصور الوسطى، وكانت استباحة دماء البابوات وسمعتهم وأعراضهم معولاً يهدم الهيبة والعصمة البابوية حتى تم الانقلاب الكامل على البابوية كمؤسسة عالمية فى نهاية العصور الوسطى.

حينما أراد أباطرة ألمانيا أن يخرجوا البابوية من عباءة الارستقراطية الإيطالية ، إذ بهم يسيرون على نفس الدرب فى إضعاف المؤسسة البابوية وإخضاع البابوات واستمالتهم طوعاً أو كرهاً تحت ذريعة إنقاذ البابوية وإعلاء كلمتها فى مواجهة حكام وأمراء إيطاليا، وكان سلاح الدعاية السلبية وتشويه سمعة البابوات هو الدواء الناجع والسم الناقع فى جسد مؤسسة البابوية العتيدة، والمؤسف فى الأمر أن البابوات أنفسهم سهلوا مهمة خصومهم فكان إنحلالهم الأخلاقى وسوء سلوكهم هو الحائل والمانع لأى تعاطف من عامة المسيحيين والمؤمنين مع البابوية ورجالها الذين يعدون خلفاء المسيح ونوابه على الأرض، ولهذا لم نجد من ينتفض من العامة ثأراً لحياة بابوات صورتهم آلة الدعاية السياسية لملوك وأباطرة تلك الفترة على أنهم عبيداً للغانيات والعاهرات أو طامعين فى مكاسب دنيوية ومناصب زائلة . ولهذا يمكننا القول أن ماحدث من مهازل سياسية وأخلاقية وإجرامية فى عصور البابوية المظلمة كان هو المحرك والدافع لحركة إصلاح كنسى واسع النطاق اتبعها البابا جريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣– ١٠٨٥م) فيما عرف باسم الاصلاح الجريجورى The Gregorian Reform الذى أخذ يجمع شتات البابوية ويحيى ماتبقى من هيبتها وسمعتها التى أصبحت فى الحضيض ، وكان الهدف الحقيقى والغاية الكبرى من هذا الاصلاح لم شتات البابوية لتعود شامخة فى مواجهة خصومها ولتعود إلى استكمال دورها فى الصراع بين الدولة والكنيسة.

جدول يوضح اهم البابوات الذين تم اغتيالهم منذ نهاية القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر الميلادى

البابا	فترة البابوية	طريقة القتل	القاتل أو المتهم بالقتل
يوحنا الثامن John VIII	(٨٧٢- ٨٨٢م)	سمم ببطء، ولكن أثناء سف البابا قام احد المرافقين بسرقته وحينما قام البابا بضبطه متلبساً قام السارق بتهشيم رأسه بمطرقة	القاتل أحد أقارب البابا يوحنا الثامن وكان من رجال الدين المرافقين له
ستيفن السادس Stephen VI	(٨٩٦- ٨٩٧م)	خنقا فى محبسه بعد أن ثار عليه العامة	تم اغتياله فى مداهمة من العامة حرض عليها أنصار البابا فورموسوس انتقاماً له
ليو الخامس Leo V	(٩٠٣م)	خنقاً فى السجن	البابا سرجيوس الثالث
كريستوفر Antipope Christopher	(٩٠٤م)	تم نفيه فى أحد الأديرة ثم قُبض عليه وسُجن لكنه تم خنقه للتخلص منه للأبد	البابا سرجيوس الثالث
يوحنا العاشر John X	(٩١٤- ٩٢٨م)	خنقاً عن طريق كتم أنفاسه بالوسادة	ماروزيا وزوجها جويدو
يوحنا الثانى عشر John XII	(٩٥٥- ٩٦٤م)	قتل بفراشه بعد أن هشمت رأسه على	زوج عشيقة البابا

		يد زوج عشيقته	
بندكت السادس Benedict VI	(٩٧٣- ٩٧٤م)	تم إلقاء القبض عليه بناء على أوامر البابا المغتصب بونيفاس السابع Antipope Boniface VII (تولى عام ٩٧٤م وعُزل فى نفس العام) ، ثم اعتلى كرسى البابوية مرة أخرى (٩٨٤- ٩٨٥م) وقد لذى امر بقتله فى محبسه خنقاً	القاتل راهب يدعى ستيفن بأوامر من بونيفاس السابع
يوحنا الرابع عشر John XIV	(٩٨٣- ٩٨٤م)	تم تجويعه وإساءة معاملته حتى مات وهناك من يدعى انه تم تسميمه فى محبسه	تم إعدامه بأوامر البابا المغتصب بونيفاس السابع
كليستين الخامس Celestine V	(١٢٩٤- ١٢٩٦م)	قتل فى محبسه	تم توجيه الاتهام للبابا بونيفاس الثامن

قائمة المصادر الأجنبية

- Annals of Fulda :
  The Annals of Fulda " Ninth Century Histories, trans. By Timothy Reuter, vol. 2, Manchester University Press, Manchester,1992.
- Anastasius Bibliothecarius:
  Epistolae et privilegia Stephanus Papa, in Anastasius Bibliothecarius , Patrologiae latina , Jacques-Paul Migne , Tomus CXXIX (129),1853.
- Anonymous:
  Chronicon Salernitanum, A critical edition with Studies on Literary and Historical Sources and on Language , a cura di U. Westerbergh, Stockholm, 1956.
- Arnulf Of Milan:
  The Book Of Recent Deeds, Trans. by W.L. North, from the edition Of Claudia Zey (MGH Scriptors Rerum Germanicarum 67),Hannover, 1994.
- Attonis Vercellensis Episcopi:
  Opera Omnia Accedunt Leonis VIII Antipapa Epistolae et Constitutiones, in Patrologiae latina, Jacques-Paul Migne, Tomus CXXXIV (134), 1853.
- Auxilius und Vulgarius:
  Auxilii in Defensionem Sacrae Ordinationis Papae Formosi, in Auxilius und Vulgarius Quellen und Forschungen zur Geschichte des Papstthums im Anfange des zehnten Jahrhunderts, von Ernst Dümmler, Leipzig, 1866.
- Einhard :
  The Life of Charlemagne , Tran. By Samuel Epes Turner, Harper brother, New York, 1880.
- Flodoard, of Reims:
  Les Annales de Flodoard, une Introduction et des Notes par Lauer p., A. Picard et Fils editeurs, Paris , 1905.
- Hermannus Contractus:

Hermanni Contracti Chronicon "Codex Augiensis" ad anno 904, in Patrologiae latina, Jacques-Paul Migne, Tomus CXXXXIII (143), 1853.

- Iohannes VIII papa:
  Queritur nullam sibi contra Saracenorum excursiones opem ferri; rogut ut ub imperatore celeriter posluletr auxilium: legatum suum commendat ; petit det operam ut Angelberga ab exsilio revoceiur et Romam nuittalur (anno 882), in Opuscula et epistoae quae spectant ad causam Hincmari Laudunensis Joannes VIII Pontifex Romanus, in Patrologiae latina, tomus 126, Excudebatur et venit apud J. P. Migne, 1852.
- Joannes Papa XII Anno Domini DCCCCLXIII (963), in Patrologiae latina, Jacques-Paul Migne, Tomus CXXXIII (133), 1853.
- Liutprand of Cremona:
  Works of Liutprand of Cremona, trans. & introduction by F. A. Wright, E. P. Dutton &CO., New York, 1930.
- Platina, Bartolomeo:
  The Lives of The Popes "from The Tim of our Saviour Jesus Christ to The Accession of Gregory VII", trans. & edited by Benham B. D,Griffith Farran & CO., London.
- Thietmar of Merseburg:
  The Chronicon of Thietmar of Merseburg "Ottonian Germany", trans. & annotated by David A. Warner , Manchester University Press, Manchester , New York, 2001.
- William Cave:
  Scriptorum Ecclesiasticorum historia literaria a Christo nato usque ad sæculum XIV, Musevm Britan, Coloniae Allobrogum Gabrielem de Abrielem de Tournes & Filios , M.D CC. XX. (1720).

قائمة المراجع الأجنبية والعربية

- Brenda Ralph Lewis:

Dark History of the Pope, Amber Books Ltd,London, 2012.

- Conrad Leyser:
  Episcopal Office in the Italy of Liudprand of Cremona "c.890-c.970", in The English Historical Review, Vol. 125, No. 515 (August), Oxford University Press, 2010.
- Christopher Kleinhenz:
  Medieval Italy: An Encyclopedia , vol. 1 , New York Published by Routledge, 2004.
- Ferdinand Gregorovius:
  History of the City of Rome in the Middle Ages, vol. 3, trans. from German edition by Annie Hamilton, G. Bell & sons, London, 1895.
- Issac pandinjarekutt:
  Christianity Through The Centuries, St. Paul Press Training School, 2005.
- Jerry L. Walls:
  The Problem of Bad Popes" The Argument from Conspicuous Corruption", in Perichoresis, vol. 18, Houston Baptist University, 2020.
- John C. Dwyer:
  Church history, Paulist Press, New York, 1998.
- Jo Ann Mcnamara and Suzanne Wemple:
  The Power of Women through the Family in Medieval Europe 500-1100 , vol. 1, Feminist Studies , Women's History, (Winter – Spring), Feminist Inc. , 1973.

- وفاء مختار غزالى :

تاريخ المسلمين فى فراكسنتيوم (٢٧٧ – ٣٦٥هـ / ٨٩٠ – ٩٧٥م) ، فى مجلة المؤرخ العربى ، العدد ١٩ ، أكتوبر ٢٠١١م .